ارتعاشات القلق الصوفي
في شعر التجاني يوسف بشير

د. عبد القادر فيدوح *

آراء في القلق:
يقول الفيلسوف الصيني لين يوتانغ: إن طمأنينة النفس تنبثق من التسليم بأسوأ الظروف

ارتعاشات القلق وأمارة الإرادة

لقد شهدت حركة نهضة الشعر العربي الحديث طابعا تجديديا مميزا، ممثلة في ثُلة من الشعراء البارزين على مستوى الوطن العربي من الذين حاولوا التخلص من الضعف الفني الذي ساد أمدا لا يستهان به في مسيرة الثقافة العربية، حيث كانت مثقلة بالمحسنات اللفظية المتكلفة، والمعاني المبتذلة، وقد عبر عن ذلك شوقي ضيف في قوله : اقرأ دواوين الشعراء... من مثل إسماعيل الخشاب، والشيخ حسن العطار، والشيخ محمد شهاب الدين، فلن تجد سوى مجازات لفظية قد تدثرت بثياب غليظة من محسنات البديع ولن تجد شعوراً ولا عاطفة، لقد تبلدت الحياة، فجمد الشعر والشعراء، ولم يعد هناك إلا التقليد.. فقد أصبح الشعر حساباً وأرقاماً وتمارين هندسية عسيرة الحل".

وسعياً من شعراء عصر النهضة إلى التخلص من الأساليب القديمة، كان عليهم أن ينطلقوا من الاهتمام بشعور المرء بذاته، بوصفها حالة اجتماعية في دلالاتها المنشودة ؛ الأمر الذي استجلب معه نمطا جديدا من اللغة الشعرية، المفعمة بالصور الحيوية، في سعة أفقها المترامية الأطراف. ولعل في ذلك ما عزز مكانة الثقة بالنفس، وكلما كان ذلك كذلك كان في الوقت ذاته عامل اليقين منصبا على الإبداع بروح تلقائية، على نحو يطمئن ذات الشاعر، مع الاعتقاد بصحة المأمول في رؤاه المرتبطة بالتجربة الفنية ذات التوتر الروحي، حيث التوحد بالأحوال مع المأمول ؛ الأمر الذي " يخلق صورة جيدة للعالم من جديد، كما يتجدد الرحم بالولادة، فهي تمثل بكارة العالم، فحين يضيق الرائي بالعالم المحسوس، لأنه عالم الرتابة، وينشغل بعالم الغيب، الذي هو مكان التجدد المستمر، تكون الرؤيا كشفا، حيث تكشف عن علاقات بين الأشياء تبدو أمام العقل متناقضة، وهي إبداع، والإبداع قد يكون كشفا لم يعرف بعد، وقد يكون تأليفا جديدا لأشياء معروفة: شريطة أن يجيء التأليف شكلا لم يعرف بعد. وحين تصبح الرؤيا

كشفا ينظر الرائي إلى العالم بعين خياله، لا بعين رأسه.[1] لذا وجدنا التجاني يوسف بشير يعي ما يمكن تجاوزه بعين الرأس، حين رأى في الكائنات أنها محكومة بصورة الذات في مستوى خلق الكون الــذي توجهت إليه العناية الكلية بعين القلب، وليس هذا غريبا على شاعر تبدت في ملامح مــرآة "قطراتــه" التأمل في الآفاق، بوصفها مدارك مأمولة :

قطرات من الندي رقراقة يصفق البشر دونها والطلاقة
ضمنتها من بهجة الورد افوا ف ومن زهرة القرنفل باقة
نثرت عقدها أصابع من نو ر ترسلن خفقة وأناقة
رب وشي نمقن في صفحة الور د ونضرن في الربي أنماقه
ومصابيح أسرجتها يد الشمــ ــس وضاء في زهرة خفاقة
يتقطرن أنجما في أكاليل من الزهر أسرجت أوراقه
وأفاق الضحى عليها وقد رو ت أزاهيره وندت رواقه
تلك مطلولة وهاتيك سكرى من ندي دافق وخمر مراقة
وهي براقة الضفاف ومرمو قة بيض اللآلئ البراقه
نفضتها في الدهر أجنحة الأمــ ــلاك تلك الرفافة الصفاقة
فأصابت فيما أصابت فتي نقرن أوتاره وهجن اعتلاقه
إن تردت في غائر من أمانيه وندت من الهوى أعراقه
واستقلت بأصغريه... فكم قومن أضعافه وانهضن ساقه
شاخصاً مازال يعزف ما شاء علي مزهر الندي أشواقه
كلما لج في الذهول أطباه المز هر الرطب في يديه فشاقه
بعض اندائه فيوض من النو ر ونبع من قوة خلاقه

لفها في الصبي وأضفي عليها عبقري المطارف الرياقه
فهي دفق من عالم كله قلب خفوق ولوعة دفاقه
عالم الجمال والحسن ودنيا الحب والقلب وجده واشتياقه
يتحدرن من "مفاجع" أيا مي ومهوى مدامعي الرقراقة

[1] ينظر، أدونيس : الثابت والمتحول ج3 " صدمة الحداثة"، دار الفكر، بيروت، ط 5، 1986، ص 166، ينظر أيضا، سهير حسانين : العبارة الصوفية في الشعر العربي الحديث، دار شرقيات، ط، أولى 2000، ص27

ويرجعن في "مفاتن" دنيا ي صدي يزحم الهوي ابواقه
في مساب الندي وبين زراعي زهرات الربي من الشعر طاقه
افلتت من هدي النواظر واستذ رت بصمت تلفه اطراقه
جف من حولها الأريض ونام العطر في مهده وأخلي في مساقه
وهي ريانة تمد قطافا من جني كم ذا طعمت مذاقه
من دمي يستدرها أنفاسي لهيباً أسميته إشراقه
قطرات من الصبا والشباب الغض منسابة به منساقة
ورهام من روحي الهائم الو لهان امكنت في الزمان وساقه
ظل يهفو إلي السماء ويشكو لوعة الروح ها هنا واحتراقه
يتحدرن من "معابد" أيا مي حنيناً أسميته إشراقه
قطرات من التأمل حيري مطرقات علي الدجى مبراقه
تسترسلن في جوانب آفا قي شعاعاً أسميته اشراقه

لعل ما يميز قصيدة " قطرات " هو المجاز في متواليات الصور، بناء ودلالة، وهو ما نستشفه من خلال وضعه المنكسر الذي تعكسه معظم قصائده الداعية إلى نداءاته التي لم تجد صدى من يقظة الــضمير، وفي ذلك ما يبرر توسع مدى التجاني يوسف بشير بالسمات المميزة التي منحتها له نسمة الحياة الطافحة بالترجي، فيما لا وثوق بحصوله من هذه الحياة التي قست عليه، وبما كان يشعر به في أعماق كيانــه، فوقف عاجزا أمام كل ما يعترض سبيله، وعلى معرفة حقيقة وجوده على هذه الصورة دون تلك التــي منحتها القوانين الإنسانية والطبيعية التي منحتها لغيره كي يتحد مع ذاته، ومع من حوله. وليس أدل على ذلك من عنوان القصيدة نفسها" قطرات" في إنتاج دلالاتها الموحية بتوالي القطرات، علها تغمــره مــن فيض نداها الرقراق. لذلك جاءت " قطرات" بحمولاتها الرحمية في صور متعاقبة، تسهم في إنتاج باقي المجازات المولدة لتوضح معضلة الكوني الزائف والباطل ؛ الأمر الذي أدت به تصرفاته إلى أن ينجــر إلى القنوط، وأن يشعر باليأس والإحباط.

ومن تلك المشاعر يجد الشاعر نفسه في عَسْفٍ، بما انثال عليه من مفاوز، ومجابهتها بغير قــصد ولا هداية، وأصبح يخفق إلى حياة مفجعة من حرقة الحزن التي تعبر عنها ظلال المعاني المبثوثة في ثنايا قصائده التي تطل علينا بنبرة تتنهد من قلب كليم، تتوجس بصوت حزين قلقه العميق، كما في قوله مثلا:

فهي دفق من عالم كله قلب خفوق ولوعة دفاقه

...

يتحدرن من "مفاجع" أيا مي ومهوى مدامعي الرقراقة

وقوله :

شاخصاً مازال يعزف ما شاء على مزهر الندي أشواقه
كلما لج في الذهول أطباه المز هر الرطب في يديه فشاقه

ماذا تعني الحياة بالنسبة إليه وهو من يئن من عبئها، وما تحمله من ثقل تبعاتها التي أثقلت كاهله، أمام هذه المفارقة لم يجد نفسه إلا في مواجهة فقدان حقيقة مغزى وجوده، كونه مجردا من كل معايير الإنسانية، التي حرمته من نعمة الحياة على نحو ــ يفترض أن ــ يتوازى فيه مع غيره، وهو ما جعله يشعر بضآلة قيمته لولا الحقيقة في طلب الممكن عبر مسار وتر ندى الأشواق، ونزوع الذات فيما استوقد شوقه إلى صفاء هذه الذات من صدأ الواقع الكليم، وما أصابه من نزيَّة في نفاذها الدائم، مما أدى إلى تعميق الجرح في الحد من معالم طريق الإرادة، نتيجة وفرة شرور البلاء في المتضادات المنهالة عليه كوابل من الرزايا، ولعل ما رسمته قصيدة " دنيا الفقير " من لوحة دراميـة، أثارتها الظروف المحيطة به، دليل على ما رسمته الحياة من كآبة مضنية، فلم يجد بدا من مخاطبة زهرات الخريف للبرهنة على وشْك النهاية :

تعالي معي زهرات الخريف إلي الكوخ أفلت منه الربيع
ومر به غير مستحب إليه سوي زفرة من دموع
وما كان ينفذ منه العبير ولكن شحاً أصاب القنوع
تعالي نعطر ثياب الفقير ونمسح مآسي عبر الربوع
بنفسي من هان حتى توا ضع في نفسه كل معني رفيع
مشى خاشع الطرف رث الثيا ب كئيباً كثير مرائي الخنوع
تأكله حسرة في الضمير وتسحقه خيبة في الضلوع
يبين عليه انكسار الفؤا د ومسكنه المستذل الوضيع
وفي نفسه ظمأ للعطور وفي روحه حرقات وجوع
ينام على ولهٍ بالثراء ويصحو علي نسمات الهزيع
فيرفع كفيه نحو السماء ويضرع واهاً له من ضريع
وماذا يقول: الهي الكفاف ويردفها بالبصير السميع
ويمسح في وجهه راحتيـ ـه ويغضي تقى أو رضى أو خشوع

لقد ترك الشاعر مقولات الوعي بالنهوض في مواجهة الواقع المرير، واستسلم لمعطيات طـــالع كفِّـــه، وكأنه منقاد إلى قدره المحتوم، ومذعن له، كما ترك لنصيبه حرية فعله في اتخاذ مـــا يريـــده القـــضاء والقدر، والتعامل مع الأمور كما هي، امتثالا لمقولة الفيلسوف الصيني لين يوتانغ : "إن طمأنينة النفس تنبثق من التسليم بأسوأ الظروف".وفي مثل هذا الوضع لم تكن مساعي التجاني يوسف بشير إلى الإسهام في النظر إلى الحدود المفروضة، بقد رما كان ينظر إليها فيما يفرضه حضوره المتناهي في هذا الوجود إلى الحدود الممكنة، كونه معرضا لخطر الشقاء الأبدي ، كما في قوله:

تأكله حسرة في الضمير وتسحقه خيبة في الضلوع

لقد كان الشاعر غيبة في حضور، ملأه الضنك ، وهشّمه الأسى، والضيق من كل شيء، كما استـــضام الواقع حقه الطبيعي في الحياة، وانتقصه إياه، سواء أكان ذلك بفعل واقع الحال، أو من دون إرادة منه، فكانت حصيلته المتناهية ما لبث أن سقط رهن الاستسلام كالورقة الصفراء بعد أن ســـاء حالـــه وذاق مرارة الحياة، فأصبح ذابلا، كما في قوله :

هي قسطي من السماء فما أضيـــ ـــع في العالم الترابي قسطي

وهو إن كان يشكو من قسوة الحياة عليه بعد أن أصبح في حال تتوجع لها القلوب عطفا، وتنفطر لهـــا النفوس رأفة، وتسيل لها الدموع شفقة، إلا أنه كان مترفعا عن السؤال، بنفس أبية، معبرا عن ذلك فـــي قوله :

أنا وحدي استصرخ العدل فيـــ ـــكم وأحيي القضاء في إنسانه
ما إلى الرفد قد مدحت وما مثل قناتي تلين من لمعانه
عمر ملاي ما أطباني سحر المال يوما لرغبة في اختزانه
وأنا المرء من عرفت إباء وعزوفا عن ذله وهوانه [2]

إنه يرفض أن تلين له القلوب، **متظاهرا** أنه لا يتصدع بما أصابه من انهيار، وهو مـــن يحمـــل قلبـــا جلمودا، وهو ادعاء استنكاري **يتمس له من الأسباب ما يجعله سائغاً مباحا**، أوً يبرر عـــن احتجاجـــه، واستقباحه لما يحدث له، وكأن **لا هَمَّ يعترض سبيله، ولا غَمَّ يسيء حاله**"، بعـــد أن رمـــت الحيـــاة بجلاميدها، وثقلها على كاهله حملا ثقيلا، وألقى الزمان عليه فقرا مدقعا، فتسلطت عليه شدة المهانـــة، ومع ذلك لم يرض بالمذلة كونه يرى نفسه عزيزا، يطاول بالكِبر الذي ورث مجده "كابرا عن كابـــر"،

[2] الديوان، ص 87

على الرغم من التصاق الفقر به حيث " عاش التجاني فقيرا...كغالبية الشعب السوداني ــ حينذاك ــ وليس في هذا ما يعيب، وقد كان لهذا الفقر أثر واضح في شعره، فهو.. في بعض قصائده يضيق تارة بهذا الفقر، وتارة يفلسفه ويفتخر به، ويشيد بعظمته، ويشن حملات عنيفة على الثراء والمثرين، ...وبعبارة أخرى، فإن الفقر هو مفتاح شعر التجاني".[3]

يشعرك الشاعر في هذا المقطع أن للوحدة طريقا في التفرد بذاته لمعايشة الألم والحسرة، وان للغربة مكانة تتخذ سبيلها إليه في كل آن، فامتلأ شعره بمعاني الغربة النفسية بعد أن شعر بالوحدة، وعششت فيه الوحشة والأحزان، في هذا العالم الموبوء، حيث لم يجد فيه استقرارا، وخال من العدالة والتكافؤ، حين وجد العدل لا يشاركه حظه، ولا يتعامل معه بإنصاف، فأخلد روحه إلى الاستصراخ وطلب الاستعانة، ولكن من دون جدوى، بعد أن تخلى عنه القدر، وخلى سبيله إلى سوء الطالع ؛ لذا آثر الانطواء، وانكماشه على نفسه، لينسي به همومه في ميله إلى العزلة، والرضا بالخلوة، والقناعة بالشدة والعسر.

لعل القارئ عندما يقرأ شعر التجاني يوسف بشير يرى أن القلق سمة غالبة عليه، تؤكدها الصور الدالة، المعبرة، عن وضعه، سواء أكان ذلك من خلال روح النص في معنى كلماته، أو فيما يتضمنه مخبوء هذه الدلالات من معان مستورة، تشكو قلقه من الحياة، ومع ذلك فإن كلماته تأتي مفعمة بالرقة :

إنها ثورة الحياة فمن للكون -- يحميه من قذائف رعن
إنها ثورة الشباب يبسا مراعيه -- وما كالصبا أقر لعينى
يفرح الطين فى يدى فألهو -- جاهدا أهدم الحياة وابنى
كم أشيد الحصى قصورا وكم -- أكبر من شأنها وأقدر شأنى
وطنى فى الصبا الدمى والتماثيل -- ونفسى ومن احب وخدنى

لعل مشكلة التجاني يوسف بشير تكمن في المؤشر السلبي لمقاومة الحياة، والحاجة إلى التغلب عليها، ونظرا إلى فرط نظام التفكير السوداوي، فقد قوة الحماية والتحفيز نحو الفعل المقاوم. ولا ريب في أن هذا جرَّ عليه تثبيط العزيمة، وإضعاف الإرادة، مما جعله حبيس النظرة السوداوية في مقابل النظر إلى الحياة في بعدها الطبيعي، بكل ما تحمله من إيجابيات وسلبيات. ذلك أن الحياة ميل، ونزوع داخلي يجذب الإنسان بطبعه إلى تحقيق مساعيه إلى كل ما هو محتمل تحقيقه، ولهذا يشعر الإنسان بنفحات عطيَّة الحياة عندما يجني ما تجود به ثمراتها، وفائدتها، كل بمقدار نصيبه منها. وإذا وجب أن تكون هذه الثمرة محفزا لنا في الشعور بنشوة الكسب، فمن الضروري أنها ترغِّبنا في طلب المزيد، وعدم

[3] هنري رياض : التجاني يوسف بشير [شاعرا وناثرا] طار الجيل، ط 2 1982، ص 70 – 71.

الانصياع إلى إفرازات نظام التفكير الكئيب، وهذا ما حدث للشاعر بعد أن ألمت به السوداء، وانتابه القلق.

إن ما يميز شعر التجاني هو القلق المغلف بغلاف الإيقاع المنكسر من نبع ما يكتنه عالمه النفسي، وهو إيقاع يغلب على قصائده المائجة في تموجاتها المضطربة، ولكنها تومئ إلى دفين مستور بحكمة تعبر عن تجربة ضاربة في عمق الحاجة الإنسانية عند اقتضائها طلب الشيء، وعلى الرغم من صغر سنه إلا أن حكمه تحمل نداء تأمليا محتدما، من شدة الغيظ، برؤى أفكاره المنبثقة من حسه المفعم بالفزع من اللاجدوى، في سعيه المتواصل، حين لاحت في عينيه نظرة مذعورة من المستقبل الغامض في ضوء معطياته المربكة التي أوقعته في حيرة واضطراب أمام بصيرته المشدوهة، ولم يعد يقدر على التخلص منها، ولعل في ذلك ما يعبر عن تعبيره العفوي المناسب لوضعه المرهف الذي أفصحت عنه الجزالة الآسرة في صوره الشعرية المبطنة بتلميحات لمعانٍ غير مصرح بها في كثير من الأحيان، وكأننا به يمدنا بتجربة في النظر، والتأمل في الشيء، أكثر من إبانته تجربة الواقع الملموس، وهو تعبير كثيرا ما يلتقي إلى حد التماس مع الصوفية التي تستغرق بالفكر والتأمل لا بالحس والتلمس، وذلك حين عوض وجوده المعمول بوجوده المأمول الذي يمكن النظر إليه في جميع مشتقات النظرة التأملية " بوصفها الأشعة التي يتقبلها الإنسان ويضيء بها وجوده. والإنسان ليس إلا النور المتجلي في الوجود باعتباره جزءا من الكل. ومدى إشعاعه في الوجود هو سره الحقيقي، أو سر وجوده، وعلى قدر أنواره تتنوع أسراره الوجودية. وفيما لو جرى تخصيص هذه الفكرة في مجال الإبداع، فليس نوره سوى إبداعه. وإبداعه سر وجوده المادي والمعنوي، وكله الذي يمثل أقصى ما يستطيع بلوغه في ذاته، وكل ما يحدد في نفس الوقت تذليل القناعة الرخوة بقناعتها، وإخضاع الشكوك ليقين البحث المعرفي"[4]، وإلى هذا المعنى نلمس بعضا من حقائق صور شعر التجاني بوصفها تجربة في النظر المعبر عنها بطرائق التعبير اللغوي المنتزع من تأمل مسار الإرادة بالكشف عن الحقيقة، ومن ثم فإن علاقة التجاني يوسف بشير بذاته علاقة تأملية مشوبة بالقلق، ومختلطة باليأس والريبة:

أَنا وَحْدي كُنْتُ أَسْتَجْلي ... مِنَ العالَمِ هَمْسَهْ
أَسْمَعُ الخَطرَةَ في الذَّرِّ ... وأَسْتَبْطِنُ حِسَّهْ
واضْطِرابَ النُّورِ في خَفْقَتِهِ ... أَسمعُ جَرْسَهْ
وأَرى عِيدَ فَتَى الوَرْدِ ... وأَسْتَقْبِلُ عُرْسَهْ
وانْفِعالَ الكَرْمِ في فَقْعَتِهِ ... أَشْهَدُ غَرْسَهْ

[4] ميثم الجنابي : حكمة الروح الصوفي، دار المدى، ط1، 2001، ص 177

رَبِّ سُبْحانَكَ إنَّ الــكونَ لا يَقْدِرُ نَفْسَهْ
صُغْتَ مِنْ نارِكَ جِنِّيــهِ ومِنْ نُورِكَ إِنْسَهْ

إن وعي الذات وإدراكها همومها نابع من التكامل الذي يستمد آليته من التطور الذاتي، الــداعي إلــى الخلاص من وعي الخارج، والساعي إلى الهروب من مهاميز الواقع الكليم، لذلك رمى الشاعر بثقله إلى كل ما يدعوه إلى التأمل في حقائق الكون من خصوصية معرفته بذات الحق المتجلية في ذات الخلــق، حين استبدت به غائلة العوز إلى طلب السؤال، وهو سؤال تأملي بغرض الوصول إلى مرفأ الأمان:

أينا لو عدلت يكتنز العا لم في صدره وفي تفكيره ؟
أينا يزحم الوجود جناحيه وتــ ــمشي الحياة بين ضميره ؟[5]

أو كما في قوله :

يا موكب النور أين أفضى بك الطريق الذي سلكته ؟[6]

وليس غريبا، ولا مستبعدا، أن يكون التجاني يوسف بشير متأثرا بما ساد من صراع دائر في الحركــة الثقافية في حينها بين أنصار طه حسين وخصومه، حين مثل كتابه "في الشعر الجاهلي" صداما حقيقيــا رجرجته مواقف عميد الأدب العربي طه حسين المثيرة للجدل، بعد أن تحوّم بهالة من الشك. وقد يكون الأمر نابعا من وعيه الإبداعي المستند إلى قلقه الفكري في تفسير علاقته بالكون، واضطراباته النفــسية الناجمة عن الضياع الذي أفرزته تجاربه التي رأى فيها أنها لا تنفصل عن مبررات الكون وقدره؛ لذلك استمر الشاعر في مناجاة نفسه بوصفها دليلا على حقيقة الوجود، وبرهانا على قيمة الخــالق بحــسب قوله:

سبحانك اللهم. نفــ ــسٌ كلها عطف ولين
وتر من الناي المقد س من بقايا المرسلين
من قدس داجية الشعو ر وطهر واضحة الجبين
من كل سحر في الوجو د وساحر في العالمين
من مهبط الروح العز يز وعنصر الجسم المهين
صيغت فكانت حرة أبداً علي مر السنين
هي تلك نفس فتى أقا م بها علي حرم الفنون

[5] إشراقة، ص 65
[6] إشراقة، ص 141

نفس موزعة المشا … عر كلها أبداً عيون
في كل رابية تنقِّـ … ـب عن سنا الأمل الدفين

....

وقفت تتمتم للإل … ه بما تقدس أو تدين
تستلهم الأدب القويـ … ـم وتسمع الوحي الرزين
لله أيتها الوديعـ … ـة قد تشط بك الظنون
الفجر ملتهب الجوا … نب والدجى شرس حرون
يتزاحمان إليك في و … لع وتستبق القرون[7]

ومن هنا يمكن تبرير موقف التجاني يوسف بشير، وإيغاله في أدغال الشك الناجم عن القلق الذي ترجعه الفلسفة إلى نسق المنهج التساؤلي، فسواء أكان الشاعر اعتقاديا في شكه، أو فلسفيا، فإن رؤاه تبقى على وجه الإبداع معروضة للدفقة الشعورية بطريقة طبيعية، والومضة الشعرية، في نبضها الإبداعي، كما أنها تشكل موقفا نابعا من انطباع تعريج ما رسمته الحياة من تجاعيد الشعور بالأسى، وكأنها تحكي عمرا مديدا. والشاعر في هذه الحال يستجيب للوعي المتصل بالراهن، بل بالحياة، ليرسم واقعا افتراضيا، يبحث فيه عن حال أخرى، من قبل التساؤل الذي يستقيه من قواه الإدراكية المنقوصة في الحقيقة الواقعية في مقابل رسم الحدود الممكنة، وهي الصورة التي يكرسها الخيال الشعري في التماهي مع اللانهائي الروحي، ولعل هذا ما سعى إليه المتصوفة في أثناء بحثهم عن صيغة التوحد مع **الروحي/ المطلق** في نهج سلوكياتهم.

وإذا ما رجعنا إلى التمعن، وإعمال الفكر والتأمل فيه، في حال التجاني يوسف بشير وجدناه منصهرا في الوجود المأمول عوض الانصهار في الوجود المعمول، ونعتقد أن ذلك ما كان له أن يتم لولا تساؤله الملح، بنظراته الاستفهامية، عن مضرب السمو الذي من شأنه أن يتمثل به، ويسبغ على تأمله مضمونه "**الوحداني**"، وتزرع فيه صيغة البحث عن مستوى فوق المستوى العادي، انطلاقا من أن كل شيء مستنير في نظر الشاعر من قبيل التساؤل المفضي إلى الكشف عن وحدة الذات وإعادة تجسيدها بما يتناسب مع مقامات الحقيقة وأخلاقيات الروح، إلى حيث تتجلى تلقائية اليقين المعرفي " فالعارف لا يعترف بقدسية لغير المعرفة اليقينية. إذ يجد في حيرته أيضا حق اليقين. فقد اضطر ذو النون المصري، على سبيل المثال، أن يقول : إن [أعرف الناس بالله أشدهم تحيرا فيه] بينما حصر سهل التستري غاية

[7] إشراقة، ص 68- 69

المعرفة في الدهشة والحيرة. ولم يعنِ ذلك تشابه آراؤهما، بقدر ما يعني اشتراكهما في تذليل هذا التباين على اساس وعي تجربة المقابل بمقدار ما يتحمل استعداد المجرب"[8]

إن الشعر ليس من مهمته اكتشاف الحقيقة ــ شأنه في ذلك شأن الفلسفة ــ أو البرهنة على مبررات حدوث الوقائع، بقدر ما يسعى إلى خلق وجود أسمى يتوافق مع ومضات الشاعر التأملية. وإننا لندهش، وما أيسر ما تدهشنا ــ وبشيء من الأسف ــ بعض الأحكام المائلة عن جادة الصواب عندما تفسر النصوص الشعرية النابضة بالقيم الفكرية ــ بخاصة ــ بشيء من التبسيط ؛ ذلك أن كل تبسيط فيه تسطيح، وكل تسطيح فيه استخفاف بتمثلات الصور الشعرية بالقياس إلى معايير الشعر التأملي، المتضمن سؤاله في مستور صوره تضمينا للمعنى الخفي.

ولكن، ما معنى أن نبرر لسؤال الشعر ؟ أو تساؤل الشاعر ؟. معناه أن الشعر إيقاظ صرخ الخفاء، ولن يكون ذلك إلا بأنابيش المستور واستثارة أعماقها ليخرج الشاعر ما يريد بيانه من رؤى تتضاعف بمدى قدرتها على قابلية الوصول إلى النمط الأعلى للمسعى الإنساني. ومن ثم يخطئ من يعتقد في صورة الشعر غاية في ذاتها، أو أن الشاعر مماثل لذات السوي في رؤاه، بل على العكس من ذلك إنه يعيد بناء منتجات الحياة بالكشف عن أسرار المستور، على نحو ما ورد من الشاعر التجاني يوسف بشير في قصيدة " كذلك الحب " مثلا :

تجري مع الحب إلى غاية خبيئة... كالعطر في ورده
...
وأنت يا من ذقت طعم الهوى من سحر عينيه ومن خده
عيناك هاتان.. وقد صيغتا من كبرياء الحسن أو مجده
عيناك هاتان.. وما فيهما من هادئ السحر ومحتدّهِ
كمضمر سرًا ومن بينه مغالق الكون ولم يبده ؟[9]

* **د. عبد القادر فيدوح**، ناقد وأكاديمي من الجزائر. أستاذ النقد الأدبي الحديث في جامعة البحرين.

[8] ميثم الجنابي : حكمة الروح الصوفي، دار المدى، ط1، 2001، ص 147

[9] إشراقة : ص 135 – 136.